القوة . وفي شرحه للاسباب التي تكمن وراء التوسع السريع للعرب يؤكد زيادة على المساعدة التي قدمتها قبائل الغساسنة العربية المسيحية لاخوانهم العرب ضد المسيحيين البيزنطيين . الا انه كان متنبها الى أن هناك عوامل اخرى ساهمت في الانتصار بعضها يعود الى البلاد التي فتحت وبعضها يتعلق بالمسلمين العرب أنفسهم . وبالنسبة للامر الاول فان أحد الاسباب الرئيسية كان ضعف اعداء العرب ، الفرس والبيزنطيين على السواء : جيوشهم لم تكن قوية وحكمهم كان جائرا كما ان الشعوب التي كانت خاضعة لهم سواء في سورية او مصر او بلاد الرافدين رحبت بالفرصة التي سنحت للتخلص من حكمهم . لكن العوامل الداخلية كانت اكثر اهمية . كان الجنود المسلمون يؤمنون ان الموت في سبيل نشر الدعوة كان طريقا مؤكدا الى الجنة وبالتالي فقد اظهروا شجاعة واخلاصا لم يكونا متوافرين لدى اعدائهم . كذلك اظهر القادة العرب مهارة تفوق مهارة اعدائهم بدرجة كبيرة ، والانتصارات المبكرة في العراق وسورية مدينة بالشيء الكثير لنوعية القيادة التي أظهرها خالد بن الوليد الذي قاد الجيوش العربية في العراق . وكان عمله الباهر هو في اجتيازه الصحراء السورية ـ العراقية بكامل جيشه في اقل من اسبوعين وذلك لنجدة الجيش العربي الذي كان يتعرض لضغط قوي في سورية . واظهر طارق بن زياد مهارة مماثلة اذ استطاع بقوة صغيرة ان يجتاز المضيق الذي يفصل افريقية عن اسبانية والذي حمل اسمه فيما بعد وقهر قوة اسبانية متفوقة وقد احرق طارق القوارب التي حملت جنوده الى الشاطىء الاسباني كدليل على ثقته الكاملة بقدرة اتباعه الحربية وبتحقيق النصر النهائي .

وصف زيادة مشاريع العرب لخلق قوة بحرية والتي ساهم جزء منها بقوة صغيرة في الحملة على القسطنطينية. وتعود سيطرة العرب على البحر المتوسط الى ضعف اعدائهم لا الى قوتهم البحرية .

في تناوله للطبقات الاجتماعية في بداية الامبراطورية العربية يمر زيادة بشكل عابر على موضوع الرق . واشار الى ان الاسلام ، مع انه تغاضى عن الرق ، فقد نظر بشكل غير مستحب لمالكي العبيد وشجع مشاعر العبيد ، واكد ايضا على أن هؤلاء العبيد كانوا يلقون معاملة حسنة وان بعضهم ، خاصة ممن كانوا في حوزة الاسر الحاكمة ، اصبحوا موسيقيين واطباء وقادة ناجحين . ورأى ان ثلاث طبقات اجتماعية وجدت في المجتمع العربي في العصور الوسطى وهذه الطبقات تبعا لاهميتها هي : الفئة العربية المسلحة الحاكمة والتي كانت مقصورة على عدد محدود للغاية ، وجموع المسلمين والمسيحيين العرب ثم المسلمون غير العرب . ان عجز الفئة الاخيرة والتي كانت الاكثر عددا ادى الى ردود فعل معاكسة وخاصة بين الفرس ، مما كان عاملا في النهاية على الاطاحة بالاسرة الاموية وظهور العباسيين في بغداد .

في الوقت الذي يبحث زيادة في الناحية الهجومية للحروب العربية عالج رفيق التميمي الحروب الدفاعية، واكد على أوضاع العرب غير المستقرة في القرن الحادي عشر بالمقارنة باوضاعهم في القرن السابع والثامن(١٨) . وقد تزعزعت وحدتهم السياسية ، وبدلا من خليفة واحد اصبح لديهم ثلاثة : خليفة عباسي في بغداد وفاطمي في القاهرة واموي في قرطبة . كان الخليفة العباسي اضعفهم بالرغم من ان سلطته الاسمية كانت تشمل العراق وسورية ومعظم بلاد الفرس . وفي هذه الخلافات الثلاث كانت الثورة تتركز في ايدي عدد من الحكام المحليين : عرب وفرس واتراك ومغاربة . رافق التفكك السياسي فقر اقتصادي وعدم استقرار اجتماعي. وكنتيجة لذلك اجتاح الصليبيون سورية واقاموا مملكة لاتينية في القدس(١٩). ونتيجة للصدمة التي اصيب بها العرب بفعل الهزيمة التي منوا بها فقد بدأ العرب حركة للنهضة وصلت اوجها تحت قيادة صلاح الدين الذي تحقق من أن الامل الوحيد انما هو في اعادة الوحدة المفقودة في منطقة شرقي البحر المتوسط .